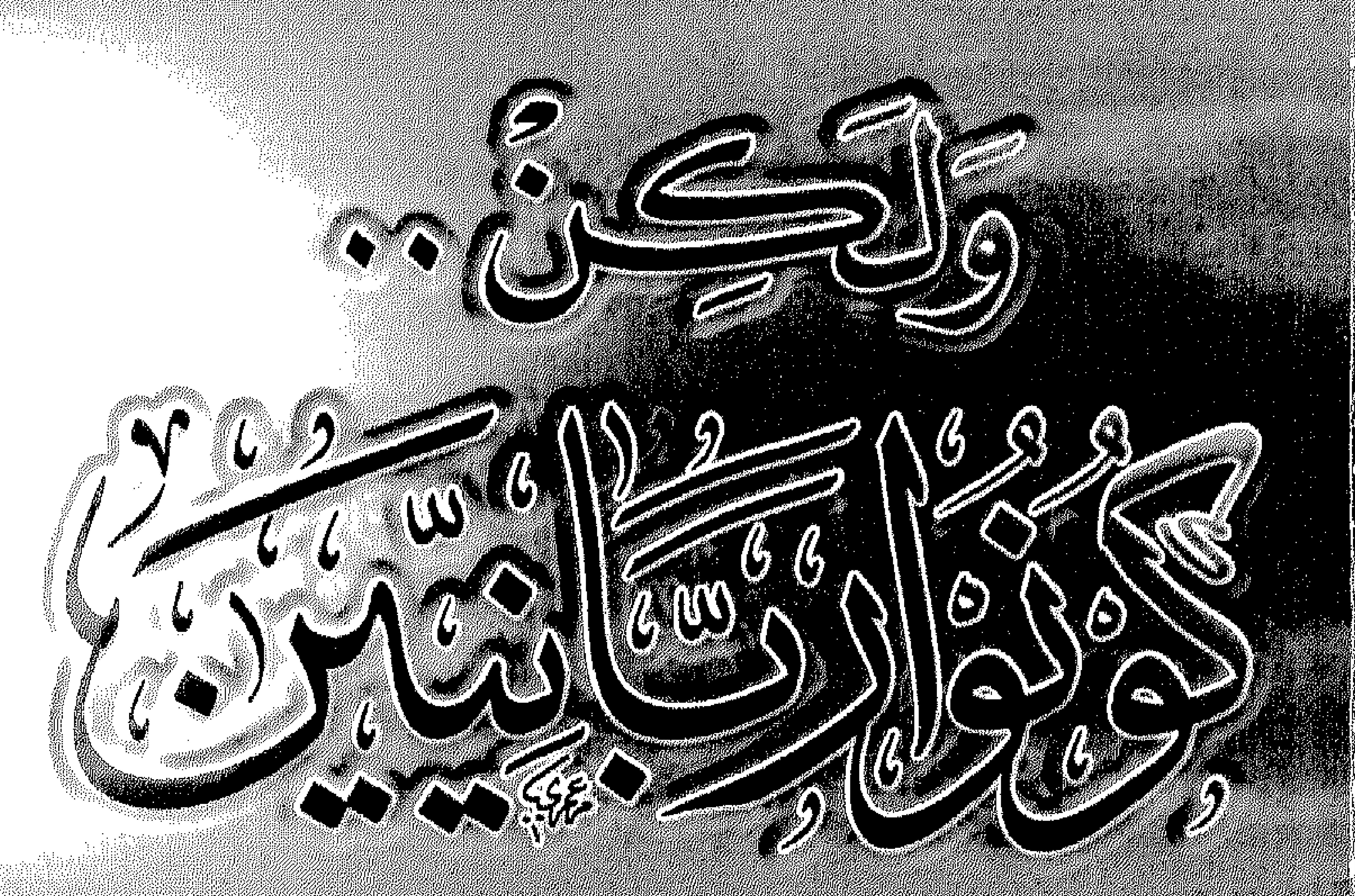
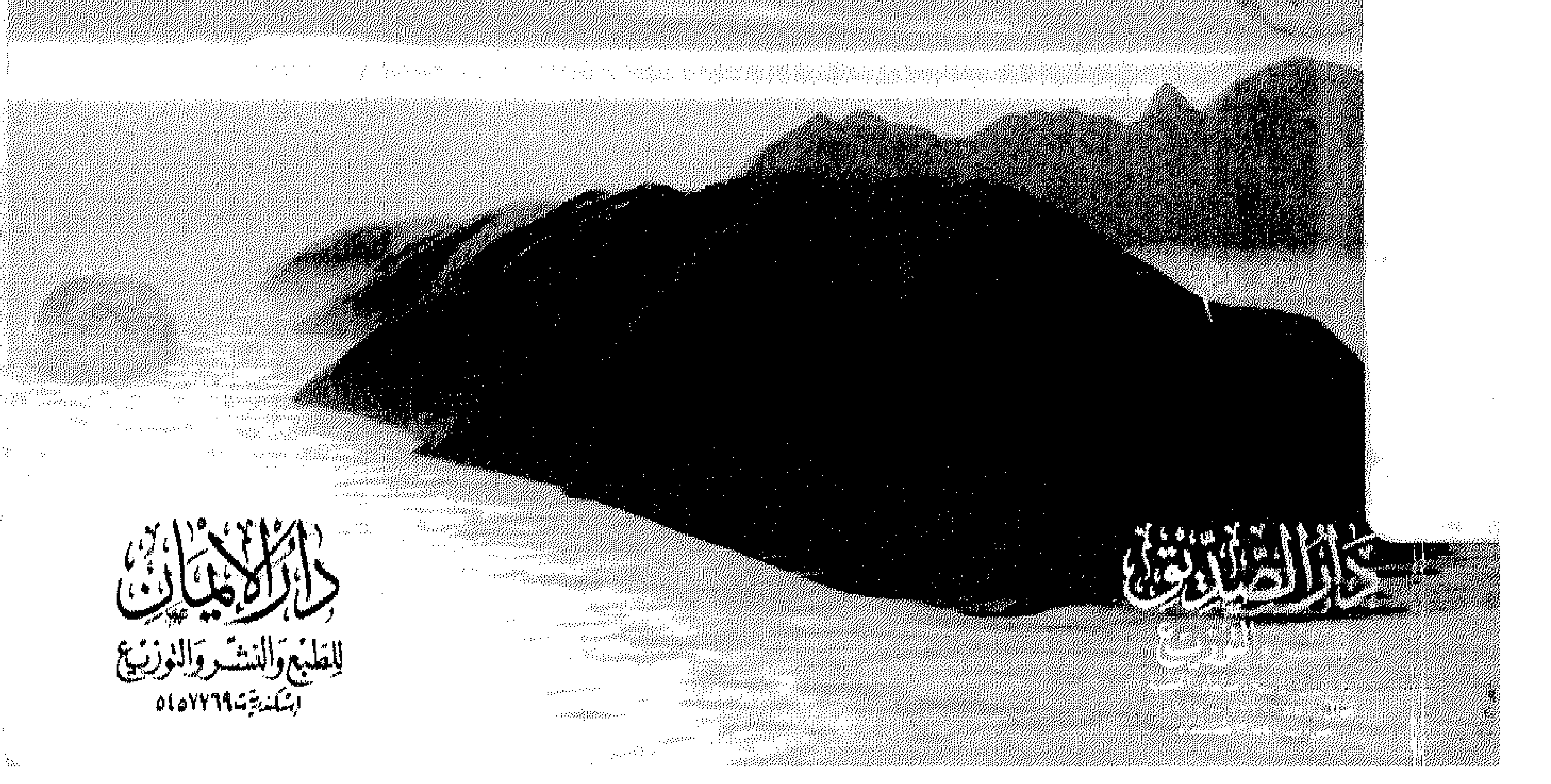
رسائل دعوية



ولكن.. كونوا ربانيين

الشيخ سلمان بن فهد العودة



دار الصديق للتوزيع

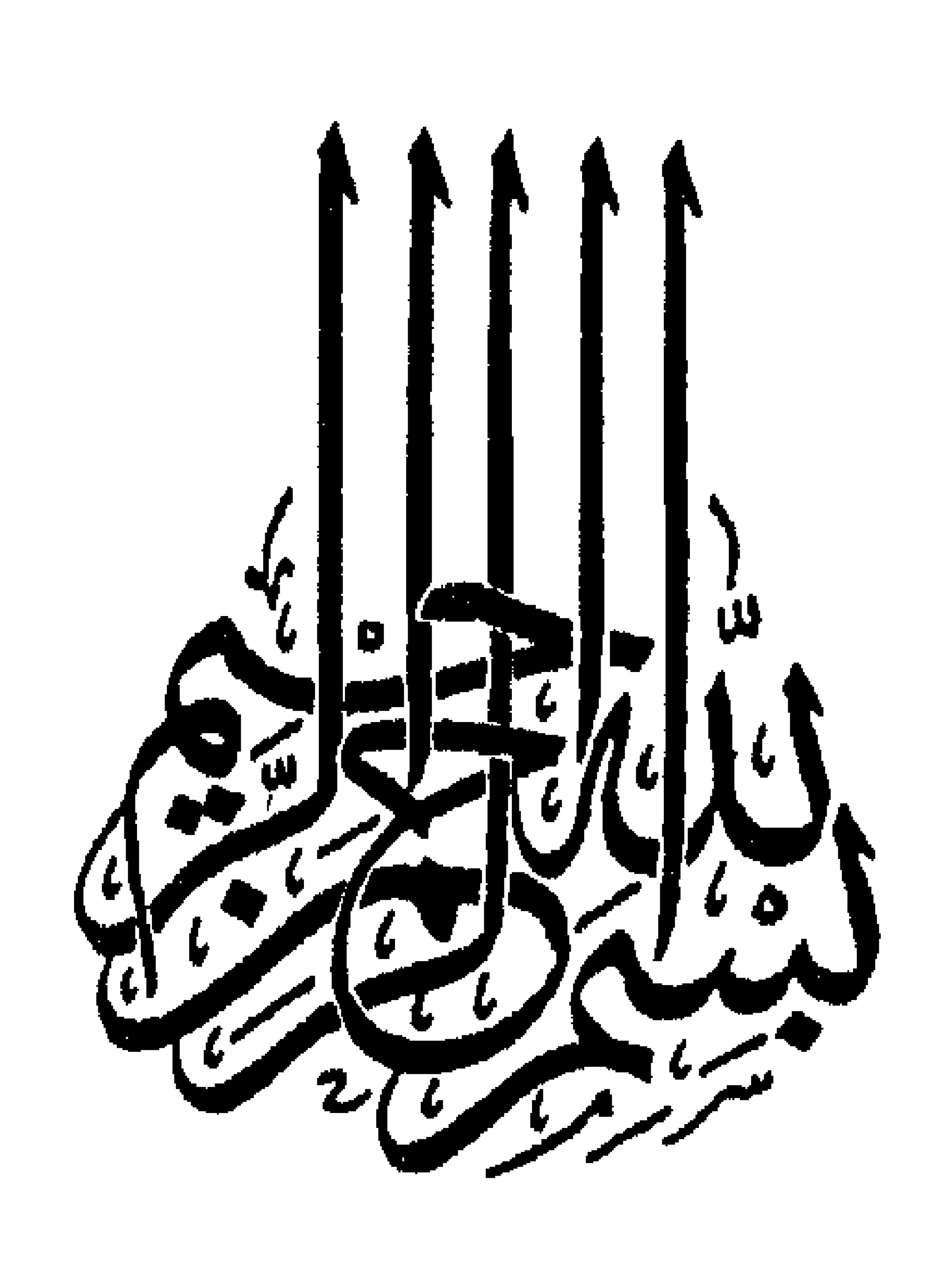
دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
اسكندرية ت ٥١٥٧٢٦٩

سلسلة الرسائل الدعوية

ولكن..
كونوا ربانيين

تأليف
سلمان بن فهد العودة
المشرف العام على شبكة الإسلام اليوم

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩





الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .
رقم الإيداع : ١٨٩١٥/٢٠٠٢م .
الترقيم الدولي : ٤-٠٧٤-٣٣١-٩٧٧



دار الصديق
للنشر والتوزيع
صنعاء - الحصبة
ص . ب (٨٢٦٩) تلفاكس (٢٣٢٥٨٥)
بريد إلكتروني alsedeeq@y.net.ye.



١٧ ش خليل الخياط - مصطفى كامل .. الإسكندرية
E mail : dar_aleman@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

إن الحمد لله ، نحمده حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، كما يحبُّ ربنا ويرضى، فله الحمد بالإسلام ، وله الحمد بالإيمان ، وله الحمد بالقرآن ، وله الحمد حتى يرضى ، وله الحمد إذا رضي ، وله الحمد بعد الرضا – جل وعلا – هو أهل التقوى وأهل المغفرة .

وأصلى وأسلم صلاة وتسليماً دائمين إلى يوم الدين على نبيه ومصطفاه من خلقه ، نبينا محمد ﷺ النبى الأمّىّ الذى يؤمن بالله وكلماته ، وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين .

أما بعد :

فعنوان هذه الرسالة [١] جزءٌ من آية من سورة آل عمران : ﴿ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾ .

---

(١) أصل هذه الرسالة محاضرة ألقيت ليلة الثلاثاء السادس من شهر صفر من السنة الثالثة عشرة بعد الأربعمائة والألف من الهجرة .

قال تعالى : ﴿ ما كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠) ﴾ [آل عمران : ٧٩-٨٠] .

ومما يحوجنا إلى تدبر هذه الآية علْمنا أن من مصائب الأمة الجهل ، وأعظم منه مصيبة ، العلم المؤسَّس على غير هدى ولا كتاب منير ، فلابد من محاربة الجهل ، ولكن لابد أيضاً أن يكون العلم الذى ندعو إليه علماً مؤسَّساً على الأصول الشرعية الصحيحة ... علماً مقرِّباً إلى الله - عز وجل -.

ولاشك أن مراجعة المسيرة ، وتصحيح الخطأ والدعوة إلى التوازن من أهم المقاصد التى يحرص عليها الصالحون والمُصلحون ، فنحن نعلم أن الجاهل قد يقْبَلُ التعليم ، لكن الذى يرى نفسه عالماً قد يكون من الصعب أن يتقبل من غيره ، ولذا ؛ فإننا سنقف من خلال تدبر هذه الآية على صفات

العلماء الربانيين الذى يعلمون الكتاب ، ويربون الناس ويهدون إلى الخير ، وهي وقفات قصيرة ولكنها كاشفة لحال هذه الزمرة الخيرة من معلمى الناس الخير ، جعلنا الله من العلماء الربانيين والهداة المهتدين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

سلمان بن فهد العودة

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

تمهيد :

تفسير الآية :

في هذه الآية الكريمة الحديث عن صنف من العلماء ، وصفهم الله عز وجل بأنهم : [ربَّانيُّون] ومعنى الآية : أن الله تعالى نفى أن يكون أحد من البشر - نبياً أو رسولاً - يمنحه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقوم هذا النبي ليقول للناس كونوا عباداً لي ، فالنبي لا يدعو الناس إلى عبادة نفسه ، وإنما يدعوهم إلى الله فيقول للناس : ﴿ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾ ، لا يأمرهم بغير ذلك ، فلا يأمرهم بعبادة نفسه ، ولا يأمرهم أيضاً بأن يتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً من دون الله عز وجل ، وكيف يأمرهم بالكفر وهو إنما جاء وبُعِثَ بالإسلام ؟! .

وقوله تعالى : ﴿ رَبَّانِيِّينَ ﴾ ، أي : حكماء فقهاء ، كما ذكره ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من السلف .

وقيل : ﴿ رَبَّانِيِّينَ ﴾ أي : حكماء أتقياء ، قاله سعيد ابن جبير رحمه الله .

وقيل : هم الفقهاء العلماء ، قاله مجاهد ، والضحاك .

وقيل : الربانيون : الذين يَرُبُّون الناس ، أى : يلونهم .

قال ابن جرير الطبرى : « لما كان العالم بالفقه والحكمة من المصلحين ، يُربِّى الناس بتعليمه إياهم الخير ، ودعائهم إلى ما فيه مصلحتهم ، وكان كذلك الحكيم التقى لله ، والوالى الذى يلى أمور الناس على المنهاج الذى وليه المقسطون من المصلحين أمور الخلق بالقيام فيهم بما فيه صلاح عاجلهم وآجلهم ، وعائدة النفع عليهم فى دينهم ودنياهم ، كانوا جميعاً يستحقون أن يكونوا ممن دخل فى قوله – عز وجل – : ﴿ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾ » ا . هـ .

فالربانيون إذن ؛ هم عماد الناس فى الفقه والعلم ، وأمور الدين والدنيا ، ولذلك قال مجاهد : « وهم فوق الأحبار ؛ لأن الأحبار هم العلماء ، والربانى : الجامع إلى العلم والفقه : البصر بالسياسة والتدبير ، والقيام بأعمال الرعية ، وما يصلحهم فى دنياهم ودينهم » ا هـ .

قال الشيخ محمود شاكر رحمه الله : « وهو من أجود ما قرأت فى معنى « ربانى » وهو من أحسن التوجيه فى فهم

معانى العربية ، والبصر بمعانى كتاب الله » . ا هـ .

وبالتأمل فى الآية ، والنظر فى كلام أهل العلم عليها يتضح أن هؤلاء الربانيين جمعوا صفات أهّلتهم لهذه المنزلة ، نستعرضها فى المباحث التالية :

الصفة الأولي

[العلم]

﴿ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ ﴾ هكذا قرأها جمهور قراء الحجاز وبعض البصريين ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ بفتح التاء ، يعنى : بعلمكم الكتاب . وقرأها عامة الكوفيين ﴿ تُعَلِّمُونَ ﴾ بضم التاء ، أى بتعليمكم الناس الكتاب ، قال ابن عيينة : ما علّموه حتى علموه » .

إذن فهم علماء ، وهذه من أخص صفاتهم ، أنهم أقبلوا على علم الشريعة ، علم الكتاب والسُّنة ، فرفعهم الله تعالى به، قال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] ، وقال سبحانه : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ [آل عمران : ١٨] ، فَقَرَنَ أولى العلم مع ملائكته ، ومع ذاته المقدسة ، وأشهدهم على ذلك فدل على علو قدرتهم .

وقال عز وجل : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [محمد :

١٩] . فبدأ بالعلم قبل القول والعمل .

إنهم هم العلماء ، والعلم حياة ، ولهذا قال الشاعر :

أخُـو العِلْمِ حَىٌ خَـالدٌ بَعْـدَ مَـوْته
وأَوْصَـالُه تَحْتَ التُّـرابِ رَمِـيمُ
وَذُو الجَهْلِ مَيْتٌ وَهُوَ ماشٍ عَلَى الثرى
يُظَنُّ مِنْ الأحـيَـاءِ وهو عَـديمُ

وقال آخر :

وفى الجَـهْلِ قَـبْلَ المَوْتِ مَـوْتٌ لأَهْله
وأَجْـسـامُـهُمْ قَـبْلَ القُـبـورِ قُـبُـورُ
وأَرْواحُـهُمْ فى وَحْشَةٍ مِنْ جُسُـومِـهِم
ولَيْس لَهُمْ قَـبْلَ النُّشُـور نُشُـورُ

فالجُهَّال أمواتٌ غير أحياء بجهلهم ، ولو كانت أسماؤهم على كل لسان ، فأنت اليوم – مثلاً – لو سألناك عن أعظم عالم فى القرن السادس الهجرى وأوائل السابع ، لقلت : شيخ الإسلام ابن تيمية ، فأصبح يعرفه الكبير والصغير ، لكن لو

سألناك - مثلاً - من هم تجار ذلك القرن ؟ ومن هم قواد الجيش ؟ ومن هم أصحاب السلطة والجها ؟ فإنك لن تعرفهم، أو لن تعرف الكثير منهم ، لكن من الذى لا يعرف ابن تيمية ؟! هذا الذى كلما تقدم الزمن زادت شهرته ومكانته ، حتى إن مكانته اليوم - عند المسلمين - أعظم بكثيرٍ من مكانته يوم كان حياً يتحرك بينهم ،ففى ذلك الوقت كان خصومه كثيراً ، حاربوه وكادوا له ، وسجنوه حتى مات فى السجن رحمه الله ، لكن اليوم أبى الله عز وجل إلا أن يظهر حقَّه على باطلهم ، وماتوا وبقى ابن تيمية حياً .

يارُبَّ حيٍّ رُخامُ القبرِ مَسْكَنُهُ ... ورُبَّ ميْتٍ عَلَى أقْدامِهِ انْتَصَبَا

والغريب أن العلم الشرعى - بالذات - علي رغمٍ هذه المكانة ، لا يختاره إلا القليلِ ، لأن أمام طلبه عقبات تنقصم لها الظهور ، وتُدَقُّ لها الأعناقُ . والعجيب أيضاً أن العالِم مع كونه محل إعجاب الناس وحفاوتهم فهو محل عتبهم فيما قد ينسبونه إليه من تقصير ، أو يظنونه فيه من قول أو فعل غير مرضيّ ، فيَعُدُّون عليه أخطاءه ، ويحصون زلاته ، ويطالبونه بما لا يطالَب

به غيره ، وهذا من تبعات هذا المقام فى الناس .

إذن ؛ لابدَّ من الدعوة إلى العلم ؛ فالعلم خيرٌ كله ، وهو سبب تميز ورفعة ، حتى إن الله فضل الكلاب المعلَّمة فقال : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة : ٤] ، فالكلب المعلَّم يتميز فى الصيد عن غير المعلَّم ، فكيف بالإنسان الذى فضله الله تعالى واختاره واصطفاه ؟! قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

الصفة الثانية

[الاتباع]

ليس المراد بالعلم أى علم ، فإن العلوم قد خالطتها أهواء ومقالات كثيرة ، وشاب صفاءها الأول كدر من أوشاب علقت وألحقت بها ، ولذا ؛ فإن المراد بالعلم ؛ علم الكتاب ! ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ ﴾ ، أى : الكتاب المنزَّل من الله تعالى على رسله وأنبيائه عليهم السلام .

فالمقصود بالعلم : هو العلم الشرعى المقتبس من الكتاب والسُّنة ، قال النبى ﷺ فيما رواه أبو داود وأحمد وغيرهما بسند صحيح : « **ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه** »[1] ، فالعلم : إما آيةٌ محكمةٌ ، أو حديثٌ صحيح ، أو إجماعٌ قائم كما قيل :

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٦٥٤٦) .

العلمُ : قــالَ اللهُ قـــالَ رســـولُهُ
قــالَ الصَّحــابةُ ، لَيسَ بالتَّمـــويهِ
مَــا العلمُ نصبُكَ للخـلافِ سـفـاهةً
بين الرَّسُـــولِ وبينَ رأى فَـــقِـــيــه

وقيل :
العلمُ : قالَ اللهُ ، قالَ رسولُهُ قالَ الصَّحابةُ هُم أُولو العِرفانِ

يقول الإمام ابن رجبٍ رحمه الله تعالى : « العلم النافع من هذه العلوم كلها ضبطُ نصوصِ الكتاب والسُّنة ، وفهم معانيها ، والتقيُّدُ في ذلك بالمأثور » . وهذا كلام قصيرٌ يغنى عن كثير ؛ فالعلوم كثيرة عند الناس ، يحتار المرء بينها ، بأيها يبدأ ، وأيها يختار ، فنقول : عليك بعلم الكتاب وعلم السُّنة ، فلا تأت لنا بمعنى لم تُسْبَق إليه ، كما قال الإمام أحمد رحمه الله : « لا تقل فى مسألةٍ ليس لك فيها إمام » .

ونقول : الكتاب والسُّنة ؛ لأن الرسول ﷺ كان شارحاً ومفسِّراً للقرآن بقوله وفعله ؛ فأما بقوله : فإن السُّنة تبين القرآن

، وتفصل مجمله ، وتوضح معانيه ، وأما بفعله فقد سُئلت عائشة رضي الله عنها - كما في صحيح مسلم - عن خُلق النبي ﷺ فقالت للسائل : « ألست تقرأ القرآن ؟ قال : بلى ، قالت : فإن خُلق نبي الله ﷺ كان القرآن » (١) ، فأفعاله ﷺ كانت تفسيراً للقرآن ، ولهذا وصفه بعضهم بأنه كان قرآناً يدبُّ على وجه الأرض ، وهذه الكلمة وإن كان فيها تسامحٌ ومجازٌ إلا أنها تعبير عن أخلاق الرسول ﷺ ، وأفعاله ، وأقواله .

وهذا هو الفقه حقاً ... القرآنُ والسُّنة ، وفهمُ معانيهما ، وأما أقوال الرجال ، فلا تعدو أن تكون تفسيراً للقرآن ، وتفسيراً للحديث ، ولا ينبغي أن يشتغل الإنسان بها إلا بقدر ما تكون بياناً لهذا أو ذاك .

ولهذا لما تشاغل الناس بأقوال الرجال ظهر مصطلح أهل الفقه وأهل الحديث وتميّزا ، والواقع أنهما شيءٌ واحد ؛ ما الفقه إلا علمُ الكتاب والسُّنة حفظاً ، وفهماً ، وعلماً ، وعملاً ،

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٣٣) ، وأحمد (٢٣٤٦٠ ، ٢٤١٣٩ ٢٤٦٢٩) .

ولذلك أنكر الأئمة كابن الجوزى والخطّابى وغيرهم التفريق بين أهل الفقه وأهل الحديث ، بل هما شىء واحد .

ولم يعتبر العلماء رحمهم الله المقلّد تقليداً محضاً عالماً ، حتى قال ابن عبد البر : « أجمعوا على أن المقلّد لا يُعَدُّ من العلماء » ، وقال الإمام ابن القيّم رحمه الله : « العلم هو المعرفة الحاصلة بالدليل » ، والدليل : آية ، أو حديث ، أو إجماع ، فهذا هو العلم .

أما كونك سمعتَ فلاناً يفتى بكذا ، وفلاناً يقول كذا ، فهذا لا يُعدُّ علماً ، وإنما هو تقليد قد يُعذر به الجاهل الذى لا يستطيع إلا التقليد ، أما طالب العلم ، فلا .

الصفة الثالثة

[الإخلاص والنيّة]

يقول الرسول ﷺ فى حديث عمر رضي الله عنه المتفق عليه : « **إنما الأعمال بالنيات** »[(١)] ، ويقول أيضاً فى الحديث الآخر المتفق عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : « **لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونية** »[(٢)] ، أى : يعبد الله تعالى بالنية الصالحة ، قال تعالى : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ** (١٥) ﴾ [هود : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا** (١٨) ﴾ [الإسراء : ١٨] ، ويقول الزهرى - وهو من خيار التابعين - : « ما عُبِدَ الله بشىء أفضلَ من العلم » ، إذن ؛ وأنت تتناول العلم حفظاً ، أو دراسةً ، أو تأليفاً ، أو تعليماً ، فأنت تعبد الله

---

(١) أخرجه البخارى(٣٦٠٩ ، ٤٦٨٢ ، ٦١٩٥ ، ٦٤٣٩) ومسلم (٣٥٣٠) .
(٢) أخرجه البخارى (٢٥٧٥, ٢٦١٣, ٢٦١٠ ، ٣٩٦٩) ، ومسلم (٣٤٦٨) .

تعالى بهذا .

ويقول سفيان الثورى : « لا أعلم بعد النُّبوة أفضل من العلم » ؛ لأن العالم هو وريث النبى ﷺ ، والأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً ، ولكن ورَّثوا العلم .

جاء أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أهل السوق ، وهم يتبايعون ، فقال : « أنتم هاهنا وميراث النبى ﷺ يُقسَّم فى المسجد ؟! » ، فتركوا بضائعهم ، وذهبوا يتراكضون إلى المسجد ، فدخلوا ، فما وجدوا إلا حلقةً هنا تعلِّم التفسير ، وأخرى تعلِّم الحديث ، فرجعوا وقالوا : يا أبا هريرة ! - غفر الله لك - ما رأينا شيئاً ! ، قال : أوَذهبتم ؟ قالوا : نعم ، قال : فماذا رأيتم ؟ قالوا : رأينا قوماً يعلِّمونَ القرآن ، وقوماً يعلِّمون التفسير ، وقوماً يعلِّمون الحديث ! ، قال : وهل ميراثُ رسول الله ﷺ إلا هذا ؟! » .

ويقول ابن وهب - وهو من تلاميذ الإمام مالك - : « كنتُ عند مالك وقد نشر كتبه يقرأ ويعلِّم ، فأذَّن المؤذِّن ، فذهبت أجمع هذه الكتب - يريد أن يقوم للصلاة - فقال الإمام مالك : على رِسْلِك ! ترفَّق ! ليس الذى تقوم إليه -

يعنى من التنفل قبل الفريضة - بأفضل مما تقوم عنه ، إذا صحّت النية » .

إذن ؛ فالعلم عبادة ، ولابد لطالبِ العلم - وهو يتناول العلم - من أن يشعر بأنه يتعبّد الله تعالى ، ويتقرّب إليه بالتعرُّف على حكمه فى المسائل ، والتعرُّفِ إليه جلّ وعلا بأسمائه وصفاته وأفعاله ، والتعرُّف إلى أنبيائه بمعرفتهم ، ومعرفة حقوقهم ، وما أشبه ذلك من ألوان العلم وصنوفه .

وهذا الوصف - وصف الإخلاص - هو من أخص معانى الربانية ، أى : إرادة وجه الرب تبارك وتعالى ، فيما يأتى الإنسان ويذر ، وبها يبارك الله تعالى فى العلم فيثمر العلم وينفع .

وأنت تجد الذين نفع الله تعالى بعلمهم ليسوا بالضرورة هم أذكى الناس ، ولا أكبرهم عقولاً ، ولا أكثرهم علماً أيضاً ، ولكن بارك الله تعالى فى علمهم ، ونفع به ، لِمَا كان فيه من الإخلاص ، وهناك آخرون عندهم علم غزير ، ولكن لا رو فيه ، ولا إيمان ولا إخلاص ، فلم يبارك الله تعالى فيه فقة المنتفعون به .

الصفة الرابعة

[خُلق العلم وأدبه]

وذلك بالسَّمْتِ ، والوقارِ غير المتكلّف ، والقدوة فى ذلك بالرسول ﷺ حيثَ كان أعظم العلماء على الإطلاق ، ومع ذلك إذا وجدْتَ هديه ، وأدبه ، ومعاملته للناس ، تجد أمراً يعجز عنه الآخرون ، وهذا من خصائصه ﷺ التى ميَّزه الله تعالى بها.

ففى مجال العلم ، فالمنتهى إلى سنته ، وما بلَّغه عن ربه الذى علمه ما لم يكن يعلم ، وكان فضل الله عليه عظيماً ؛ فهو إمام البشرية ومفتيها، ومعلمها ، وهاديها ،ومع ذلك تجده أيضاً متواضعاً مع أصحابه ، يمازحهم ، ويضاحكهم ، ويأخذ معهم ، حتى ربما تكلموا بأمر الجاهلية فيضحكون ، ويبتسم ﷺ [1] .

---

(١) أخرجه أحمد رقم (٢٠٨١٠) و (٢٠٨٥٣) ، والترمذى (٢٨٥٠) من حديث جابر بن سمرة بسند حسن .

فكان ﷺ سهلاً قريباً إليهم ، موطأ الأكناف لهم ، وسعهم جميعاً حسن خُلقه ، وسعة صدره ، وهكذا الشأن في العلماء الربانيين ، يرثون من النبى ﷺ قدراً من هذا الخُلق العظيم يسعون به الناس ويتألفونهم ، ويلقونهم بالبِشر واليُسر ومحاسن الأخلاق .

الصفة الخامسة
[مخالطة الناس بالحُسنى]

من الأخلاق التى ينبغى أن يتحلى بها الربانيون مخالطة الناس بالحسنى ؛ لقوله تعالى: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ ﴾ أى : تعلّمونه الناس ، وهذا لا يكون إلا بمخالطة الناس بالخُلق الحسن ، وتألفهم على الحق ، وحُسن التأتى معهم .

فلابد للعالم من مخالطة الناس وتحمل تبعة هذه المخالطة ، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « **المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خيرٌ من الذى لا يخالط النّاسَ ولا يصبر على أذاهم** » [1] .

إذن ؛ لابد من مخالطة الناس مخالطة فيها اقتصاد ، فيعطيهم قدراً من وقته ، لا يجور على واجباته الأخرى ، وإنما

(١) أخرجه الترمذى (٢٤٣١) ، وابن ماجه (٤٠٢٢) ، وأحمد (٤٧٨٠ ، ٢٢٠١٩) .

يخصِّص للناس وقتاً من أوقاته يعطيهم فيه مما أعطاه الله تعالى ، ويفرغ فيه لأمورهم ، وهمومهم ، وشؤونهم .

ومن عجيب وبديع ما قاله الإمام ابن القيم رحمه الله أنه قسَّم الناس في المخالطة إلى أربعة أصناف ، قال : « فمن النَّاس مَن مخالطته كالغذاء ، وهذا هو العالم الرَّباني الذي تخالطه لا لتضيع عليه وقته ، ولكن لتستفيد من علمه ، الثاني : مَن مخالطته كالدواء ، إنما تتعاطاه عند الحاجة إليه ، وهذا هو الإنسان الذي تستفيد منه في أمر معاشك ، ومن الناس مَن مخالطته كالداء ، والداء كما تعلم أنواع ، منها مرضٌ عضال لا يُشفَى منه الإنسان ، ومنها أمراض كوجع الضرس ، بمجرد ما تقلع الضرس يزول المرض ، وهذا مثل الإنسان الذي مخالطته تؤذيك بسيئ القول ، فإذا غادرته زال الألم ، فالضرس كذلك إذا قلعته زال الألم ، ومن الأمراض الحمَّى التي لا تكاد تفارق الإنسان ، ومن ذلك - كما ذُكر - مخالطة الإنسان الثقيل الذي لا هو بالذي يتكلم فيفيد ، ولا بالذي يسكت فيستفيد ، ومن الناس مَن مخالطته هي الموتُ بعينه ، وهو الإنسان الذي

يضرُّك في دينك : إما بضلالة أو ببدعة » .

إذن ؛ العالم الرَّباني ليست مهمته التعامل مع الكتب فقط ، فتلك وظيفة سهلة ، ولكن مهمته قيادة الناس إلى ربهم ، وتوجيههم ، ومشاركتهم آلامهم ، ومشاكلهم ، وأفراحهم ، وأتراحهم ، وأن يكون قريباً من نفوسهم وقلوبهم .

ثغرات يجب أن يقف عليها العلماء :

ولا يجوز أن تخلوا الساحة من العلماء العالِمين العاملين المخلصين ؛ لأن خلوَّها أتاح الفرصة لآخرين لهم وجهات سوء، ونحل وضلال أن يتبنوا قضايا الناس وينتدبوا لمشاكلهم ، فهناك الذين رفعوا يوماً من الأيام لواءَ الدفاع عن المرأة ، أو ما يسمونه « تحرير المرأة » ، فأفسدوا نساء المسلمين باسم الدفاع عن حقوقهن ! ، فلماذا لا يتولى أمر الدفاع عن المرأة العلماء العالمون المخلصون ؟! فيدافعون عن المرأة ضد كل ظلم أو ضيم يقع عليها ، دفاعاً بالشرع ، لا بالهوى ، ويكسبون المرأة إلى صف الإسلام والمسلمين .

وهناك من تبنوا قضايا الأطفال والنشء ، وأعدوا لهم

البرامج والكتب وغير ذلك ، فربوهم على غير هدى من الله ، فلماذا لا يتولى أمر الدفاع عن قضايا الطفل العلماء العاملون المخلصون ، أو من يلوذ بهم ، ويسمع كلمتهم ، حتى يربوا الأطفال على المنهج الصحيح ، منهج الكتاب والسُّنة ؟! .

وهناك الذين ادعوا أنهم ينادون بتصحيح أوضاع العمال ، والدفاع عنهم ، ورفعوا راية : « يا عُمال العالَم اتحِدوا » ، فَضلُّو وأَضلُّوا . ولا شك أن العمال لن يجدوا من يدافع عنهم أصدق لهجةً وأصح منهجاً من حملة الكتاب والسُّنة ، لو تصدُّوا لهذا ، واهتموا به ، ودافعوا عن حقوق العمال بالحقِّ لا بالباطل .

هناك الذين طالبوا بتحسين الأوضاع المعيشية للناس ، فتبعهم فى ذلك الفقراء ، فإذا هم كسرابٍ بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ؛ لم يغنوا الفقراء ، ولكن أفقروا الأغنياء ، وجعلوا اشتراكية الناس فى الفقر ، فلماذا لا يكون العلماء الربانيون هم المدافعون المتولون لشؤون الناس من الفقراء والعمال والمظلومين وغيرهم ؟! .

ولماذا يذهب الأشرار بمجتمعات المسلمين ، ويبقى العالم منعزلاً فى بيته ، أو مكتبته ، لا يدرى ما الناس عليه من خيرٍ أو شرٌ ، ولا يدرى الناس أيضاً هذه العلوم التى يتعاطاها أى شىء تكون ؟! بل بلغ الأمر أنه فى وقت من الأوقات كانت بعض وسائل الإعلام تتناول العالم بالسخرية ، فتظهر هذه السخرية فى التلفاز ، أو كاريكاتير ينشر فى جريدة ، فلا يجد العالم من يغضب له ؛ لأنه ترك مجال المجتمعات للأشرار ! .

إن ملايين الناس فى كل بلاد الإسلام عندهم عاطفةٌ دينيةٌ ، ولكنها تحتاج إلى بعث وإثارة ، وتحريك ، والذى يستطيع ذلك هو العالم الذى يتكلم فيسمع الناس ، وذلك متى أقام الجسور بينه وبينهم ، إذن لابد من المخالطة على منهاج النبوة .

الصفة السادسة
[العزة بهذا العلم والترفع به عن الأعراض الدنيوية]

ولهذا قال الله عز وجل فى الآية نفسها : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران :٧٩] ، فالذى أوتى الكتاب ، وأوتى الحكم ، وأوتى النبوة ، لا ينظر إلى الدنيا وما فيها من مطامع يتهالك عليها الناس - وأعظمها فتكاً حب الجاه ، وحب المال - بل هو غنى عن ذلك كله بما آتاه الله من العلم والحكمة .

خُذُوا كُلَّ دُنْياكُمُ واتْرُكُوا ... فُؤادي حُرّاً طَليقاً حَبيباً
فــإِنِّي أَعْظَمُكُمْ ثَرْوَةً ... وإنْ خِلتُموني وَحيداً سَليباً

كان ابن تيمية - رحمه الله - يقول : « ما يصنع أعدائى

بى ؛ سجنى خلوة ، ونفيى سياحة ، وقتلى شهادة » !! .

والعزُّ بن عبد السلام لما قيل له قَبِّل يد السلطان من أجل أن يسامحك ويعفو عنك ، تبسم وقال : « مساكين ! أنتم فى وادٍ ، وأنا فى وادٍ ! أنا ما أرضى أن يُقبِّلَ السلطان يدى ، فكيف أُقبِّل يده ؟! » .

الذى أوتى الكتاب ، وأوتى العلم ، وأوتى الحكم – يعنى الحكمة والفهم عن الله ، وعن رسول الله ﷺ – يترفَّعُ عن أعراض الدنيا وسفاسفها .

ثم إن الله تعالى يقول : ﴿ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾ ، أى : منسوبين إلى الرب ، والربانيون هم من أهل الآخرة ، قد يملكون الدنيا بمالٍ أو غيره ، ولكنها عندهم مثل الفراش الذى يقعد عليه ، ومثل الحمار الذى يركبه ، يستخدمه ولا يخدمه ، أى : يستخدمون الدنيا ولا يخدمونها ، فهم ليسوا عبيداً لها ، ولهذا ازدروا الدنيا ، ورأوا أنها ليست أهلاً لأن يريقوا شرفهم من أجلها .

هذا هو الشافعى يقول :

وَمَنْ يَذُقِ الدُّنيا فإنى طَعِمْتُها ... وسيقَ إلَيْنا عَذْبُها وَعَذابُها

فَمَا هى إلا جيفةٌ مُسْتَحيلَةٌ ... عَلَيْها كلابٌ هَمُّهُنَّ اجْتِذابها

فإنْ تجتنبها كنتَ سِلْماً لأهلِها ... وإن تجتذبها نازعتكَ كلابُها

وهذه العزة – أيضاً – والترفع ، تكسب الإنسان هيبةً عند العامة والخاصة ؛ لأنهم يعرفون علوَّ همَّة هذا الإنسان ، ويعرفون أنه من الصعب أن يصطاد بطمع دنيوى .

ومن القصائد المعروفة المشهورة التى تساق فى هذا المجال ، قصيدة الإمام القاضى الجرجانى – وهى قصيدة طويلة – يقول فيها :

يقولونَ لي : فيكَ انقباضٌ وإنَّما

رأوا رجلاً عن موقفِ الذُّلِّ أحجَمَا

أرى الناسَ مَن داناهم هان عندَهُم

ومن أكرمَتْه عزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا

وَلَمْ أَقضِ حَقَّ العلمِ إن كَانَ كُلَّمَا
بَدَا طَمَعٌ صَيَّرته لِي سُلَّمَا

أَأشقَى بِهِ غَرْسَاً وأَجْنيه ذِلَّةً ؟!
إِذَنْ فَاتِّبَاعُ الجَهْلِ قَد كَانَ أَحْزَمَا !

وإنِّي إذا ما فَاتنِي الأمرُ لم أَبت
أُقلِّبُ كَفِّي إثرهُ مُتَنَدِّمَا

إذا قِيلَ : هذا مَنهلٌ قلتُ : قَد أَرَى
ولكن نَفْسَ الحُرِّ تحتَملُ الظَّمَا

ولم أبتَذِل في خِدمَةِ العِلْمِ مُهجَتِي
لأَخدِمَ من لاقَيتُ ، لَكن لأُخْدَمَا

ولَو أن أَهل العلمِ صَانوهُ صَانَهم
ولو عَظَّموهُ في النُّفُوسِ لَعُظِّمَا

ولكن أهانوه فهان ودنَّسوا
محياه بالأطماع حتى تجهما

الصفة السابعة
[الحكمة]

وقد قال ابن عباس ﷺ كما روى البخارى فى صحيحه تعليقاً فى كتاب العلم فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾ ، قال : « أى : حكماء فقهاء » . وقال البخارى : « ويقال : الربّانى ، الذى يربّى بصغار العلم قبل كباره » .

حكمة العالِم الربانى :

فالعالم الربانى حكيمٌ فى علمه ، يضع العلم فى موضعه ، ولا يصرف العلم لمن ليسوا له بأهل ؛ فمن الحكمة ألا يُقدِّمَ العلم لمن لا يناسبه ، فمثلاً : عامة الناس يحتاجون إلى حكمةٍ فى إيصال العلم الذى يجب أن يتعلموه ، فيسهل وييسر العلم الشرعى لهم حتى يمكن أن يصل إلى العوام من الرجال ، والنساء ، والكبار ، والصغار ، وغير المتخصصين ، وتسهيله من خلال دروس للعامّة ، وكتيبات ، وأشرطة ، بحيث يكون العلم

الشرعى متاحاً لكل إنسان يريد أن يتعلم ، بالتسهيل ، والتيسير ، وبعبارات لبقة ، فهذا لابد منه .

ومن الحكمة أيضاً ألا تصدم الناس بما هو أكبر من عقولهم ، فيكون سبباً فى ردهم وتكذيبهم ، وفى الأثر عن علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه قال : « خاطبوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله ؟! » .

يقول الغزالى فى إحياء علوم الدين : « كِلْ لكلٍّ عبد بمعيار عقله ، وزِن له بميزان فهمه ، حتى تسلَم منه - أى : من قوله وإنكاره - وينتفع بك ، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار » .

وكم من إنسان خُطِّئ وبُدِّع وربما ضلل وهو على حق ؛ لأنه تكلم فى وسط قوم لا تتسع عقولهم لما قال ؛ أو لأن هذا الكلام بلغ إليهم من غير طريقه ، فخطَّؤه وهم المخطئون ، وضلَّلوه وهم الضالُّون .

ومن الحكمة أن يبدأ بالأهم قبل المهم ، فيشتغل بالعلوم الضرورية قبل العلوم التحسينية ، فالعلم الذى يُضطرُّ إليه اليوم ،

ويُخشى أن يفوت قبل أن يتعلمه ، يقدم على علم يحتاجه فيما بعد ، والعلم الذى يحتاجه ، يُقَدِّمه على بعض الأشياء التى هى من باب الكمال ، ولكنه قد لا يحتاج إليها .

وكذلك لابد أن يكون حكيماً فى عمله ، فمثلاً : ليس مناسباً أن يعمل أمام الناس عملاً هو يعرف أنه مباح ، لكن الناس يستنكرونه ، ويستكثرونه منه ، فعليه أن يُسرَّ ؛ لئلا يراه الناس فيستغربونه ، ويستنكرونه ، والدليل على ذلك ترك النبى ﷺ ما كان يجب عمله من هدم الكعبة وبنائها على قواعد إبراهيم ، وذلك لحدثان قريش بالكفر ، وخوفه أن تنكر ذلك قلوبهم .

ومن الحكمة أيضاً أن يكون حكيماً فى تعليمه ، فيعطى كل أحد ما يستحق ويخصّ بعض الناس بالعلم الذى يناسبهم ، ويبدأ بصغار العلم قبل كباره ، ويتدرج فى التعليم ، إلى غير ذلك مما سوف يأتى .

الصفة الثامنة

[هضم الذات]

أى : التواضع ومعرفة قدر النفس ، فلا ينتصر لنفسه ، ولا يؤذى غيره بقول أو فعل ، ولا يرد الحق إذا عرفه ، ولا يشتغل بالناس .

يقول ابن دقيق العيد لرجلٍ قد رآه يطلب العلم فأعجبه : « أنت رجل فاضل ، والسعيد من تموت سيئاته بموته ، فلا تهجُوَنَّ أحداً » ، قال : فما تكلمتُ فى أحدٍ قط .

فليس من صفة العالم الربانى الخصومة واللجاج فى كل شيء ، ولغير سبب ؛ ولهذا نفى الله عز وجل فى هذه الآية عن الأنبياء والربانيين أنهم يدْعُون الناس إلى أنفسهم ، فتضمن ذلك أنَّهم لا يغضبون لحظوظهم الدنيوية ، ولا يسعون إلى رفعة أنفسهم على حساب الآخرين مثلاً ، ولا يغضبون ؛ لأن فلاناً لم يلتفت إليهم ، أو لم يوقرهم أو نحو ذلك .

إنما غضبهم للحق ، وحتى غضبهم للحق هو غضب يتبعه حرص على الصحيح ؛ فهذا الإنسان الذى رأيت أنه أخطأ

، عامله بالحسنى رجاء أن يعود إلى الحق ، فمن غضبك للحق ألا تظهر غضبك ، بل أظهر له اللين تأليفاً لقلبه ، فإن رأيت أن عنده إمكانية القبول ، والأخذ والرّد ، فلا تغضب عليه ، وإن رأيت أنه مصِرّ ، ومجاهرٌ ، ومعاندٌ للحق ، فتعامل هذه الحالة بما يناسبها ولكل مقام مقال .

يقول الجاحظ : « وأنا أحذِّرُك من اللّجاج ، فإنه لا يكون إلا من خلل القوة ، ومن نقصان قد دخل على التمكين ، واللّجوج في معنى المغلوب » . نعم ! هذا كلام علمي رصين! اللَّجوج الذي تجده يرفع الصوت ويصرخ وينفعل ، هو المغلوب! أما الإنسان الواثق الغالب فتجده قويًا بالحُجَّة ، ولو كان صوته هادئاً ، لا يلتفت إلى هذه الأعاصير والعواصف التي تُثار هنا وهناك ، فهو لا يختار الرد مثلاً من أجل أن يريح نفسه ، أو يشبع غروره ، أو يُظهر الغلبة على خصمه ، فهذا ليس من شيمة العالم الرباني .

يقول الإمام ابن قتيبة ، ناصحاً طالب العلم في كتاب «عيون الأخبار» : « أحب أن تجرى على عادة السلف

الصالحين فى إرسال النفس على السجية ، والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع ، ولا تستشعر أن القوم قارفوا وتنزّهتَ ، وسلبوا وتورّعْتَ » .

يعنى : لا تحس أنك كامل وهم ناقصون ، أو ورع وهم مخلّطون ، أو متنزه وهم قد اقترفوا بعض المعاصى ... إياك والاستعلاء ، إياك والكبر ، وهو « **بطر الحق ، وغمط الناس** » كما عرّفه النبى ﷺ [1] .

تَواضَعْ تَكُنْ كَالنَّجْمِ لاحَ لِناظِرٍ
عَلَى طَبَقَاتِ الماءِ وهُوَ رفِيعُ
وَلا تَكُ كَالدُّخَّانِ يَعلُو مَكانَهُ
على طَبَقَاتِ الجَوِّ وهُوَ وَضيعُ

ومن التواضع الإقرار بالجهل والاستمرار فى طلب العلم ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ** ﴾ أى : عالم ويَدْرس وقد سبق أن ذكرت أن فى الآية قراءتين ، الأولى :

---

(١) أخرجه مسلم (١٣١) .

﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ ﴾ ، والقراءة الثانية : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ ﴾ أى : تعلّمون غيركم ، إذن : ﴿ تُعَلِّمُونَ ﴾ ، وأيضاً ﴿ تَدْرُسُونَ ﴾ فأنت تجده شيخاً فى حلقةٍ ، وتلميذاً فى حلقةٍ أخرى ! .

وقد كان الإمام أحمد يسعى إلى حلق العلم فى أحد شوارع بغداد ، فقال له أحدهم : « يا أبا عبد الله ! إلى متى ؟ قال : « إلى الموت ! » ، وفى قصة أخرى قيل له فقال : « مع المحبرة إلى المقبرة ! » .

فهم يتعلّمون ويُعلِّمُونَ حتى الموت ، ولا يرون أنهم قد وصلوا إلى مرحلة يستغنون بها عن طلب العلم ، فالله تعالى يقول : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر : ٩٩] ، والعلم عبادة ، بل هو من أعظم العبادات ، إذن من معانى الآية ؛ واطلب العلم طاعة لله حتى يأتيك اليقين، لكن العلم النافع الموصل إلى الدار الآخرة .

الصفة التاسعة

[العمل]

بعد الكلام عن أخلاق العالم الربانى ، نأتى إلى العمل ، والعمل هو الثمرة ، حتى إن السلف – رحمهم الله – ما كانوا يسمون الفقهَ إلا : « العلم والعمل » ، كما قرر ذلك وحرره الإمام الغزالى فى « إحياء علوم الدين » ، والإمام ابن القيم وغيرهما من أهل العلم ، وساق فيه الدارمى وغيره روايات كثيرة عن السلف .

فلم يكن السلف يعرفون الفقه الذى هو القراءة فى الكتب بل يعرفون الفقيه بأنه إنسان يعلم فيعمل ، ولا فاصل عندهم بين هذا وذاك ، ولما سُئل بعض السلف: من أعلم أهل المدينة ؟ قال : أتقاهم . ولما سُئل أيوب السختيانى رحمه الله : « أيهما أكثر ، العلم اليوم ، أم العلم عند المتقدمين من السلف ؟ » ، فقال : « الكلام اليوم أكثر ، لكنَّ العلم فيمن تقدم أكثر » . وهذا الكلام يصلح أن يطبق على واقعنا ، فالكلام اليوم أكثر ، ولكن العلم الذى وصل إلى القلب ، وأثمر العمل والصدق

قليل .

وقيل للإمام أحمد فى مجلس ذكر فيه معروف الكرخى -وهو من الزهاد العباد الأتقياء - : « إن معروفاً قصير العلم » ، فقال الإمام أحمد: وهل يُراد من العلم إلا ما وصل إلى معروف ؟! » أى : لا نريد من العلم إلا النتيجة التى وصل إليها معروف وهى العمل .

وفى حادثة أخرى سأل عبد الله بن أحمد بن حنبل والده وقال له : « يا أبتِ ! هل كان معروف معه شيء من العلم ؟» قال له : « يا بنىَّ ! معه رأس العلم : خشية الله تعالى » .

وفى حديث أبى موسى الأشعرى وهو فى الصحيحين أن النبى ﷺ قال : « **مثل ما بعثنى الله تعالى به من العلم : كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ ، والعشب الكثير** » - فهذا العالِم العامِل المعلم ، كالأرض الطيبة التى نزل عليها المطر فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، فأثمر العلم عنده العمل والعبادة والدعوة والصبر - ، « وكان منها أجادِب » - أرض

صلبة - « أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها ، وسقوا ، وزرعوا » ، - فهذا مثل إنسان عنده معرفة بالنصوص ، لكن ليس عنده فقه فيها ، فهو مثل الأرض التى لا تستفيد من الماء ، لكنها حفظته للناس ، فاستفادوا ، واغترفوا منها - « وأصاب طائفةً أخرى إنما هى قيعان ، لا تمسك ماءً ، ولا تنبت كلأً » - فهذا من ليس عنده معرفة ، ولا عمل ، ولا عبادة - ، ثم قال ﷺ : « **فذلك مثل من فقه فى دين الله فتعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله تعالى الذى أرسلت به** »[1] . وقد وصف الله تعالى أهلَ الكتاب بقوله : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾ [الجمعة : ٥] .

• العلم النافع :

إذن ؛ دونك يا أخى ! كلمة ينفعك الله تعالى بها ، هما علمان لا يضرك ما فاتك غيرهما :

---

(١) أخرجه البخارى (٧٧) ، ومسلم (٤٢٣٢) .

العلم الأول : علم ينفعك فى الدار الآخرة ، ويوصلك إلى الجنة ، ويبعدك من النار ، فهذا تشبث وتمسك به .

والعلمُ الثانى : علم ينفعك في الدنيا ، إما زراعة ، أو صناعة ، أو طب ، أو هندسة ، أو غير ذلك مما تنتفع به ، أو تنفع به غيرك فى الدنيا ، فعليك أيضاً بهذا العلم بقدر ما تحتاج ، وبقدر ما يحتاج الناس ، وإن أخلصتَ النية فأنت على خير عظيم .

أما ما سوى هذا وذاك من الكلام فى الناس ، والخوض فى أحوالهم ، وقال فلان ، وردَّ فلان ، وأصاب فلان ، وأخطأ فلان ، ونحو ذلك من المخاصمة التى اقتحمها كثيرون اليوم ، فلا تشغل به وقتك ، ولا تصرف فيه عمرك ، واعلم ! أنك قد تدخل الجنة وأنت لا ترى من هذا شيئاً ، ولا يضرك عند الله .

اشتغل يا أخى ! بعلم ينفعك فى دينك : عبادة ، ودعوة ، أو علم ينفعك فى دنياك ، تجارة ، أو زراعة ونحو ذلك . أما هذه الأقاويل ، والأغاليط والمسائل والأمور ، فانظر إلى أىّ منها ، هل هو مما ينفع فى الآخرة ؟ فإن لم يكن ، فاتركه ، ولا

تأسف عليه ، ولا تتبعه نفسك .

أما إذا كان ينفعك فى دنياك أو فى أخراك ، فلا أحد يلومك على ذلك ، ولهذا تجد العالم الربانى يعتنى بالعلم الذى له ثمرة ، فيسأل عن ثمرة هذ االعلم قبل أن يتشاغل به ، فلا يطرح مثل تلك الفرضيات التى ربما تقع ، وربما لن تقع إلى قيام الساعة ، ولا يتشاغل بالجدل فى مسائل محصورة ، وقد تكون مذكورة فى بعض الكتب ، لكن لا يحتاج إليها الآن بحالٍ من الأحوال .

● خطورة الانشغال عن الأَوْلى من العلوم :

كذلك تجد أن هذا العالم الربانى الذى همه العمل بالعلم يعتنى بصلب العلم قبل فروعه ، ومُلَحه وطرائفه البعيدة التى قد تخفى على بعض كبار أهل العلم ، ومثل ذلك الإفراط فى تتبع الكتب الجديدة وجمعها ، والذى يتطور عند بعض الطلبة حتى يصبح هواية كهواية جمع الطوابع ، وجمع التحف ، ويصرف فيها المال ، والوقت ، والجهد ، وبالمقابلِ قد لا يكون فيه أكثر من الطرفة ، والملحة ، والجمع ، وقد يُفتن الإنسان بجمع

الكتب كما يُفتن الآخر بجمع المال ، ولا يستفيد منها علماً ولا عملاً ، وإن كان الجمع المعتدل مطلوباً ، والتخصص أيضاً في ذلك مطلوب .

ومثل ذلك : الأغلوطات التي نهى الرسول ﷺ عنها ، وهي صعاب المسائل ، فالتشاغل بها مهلكة ، وإني لأعجب من الأسئلة تأتيني من شباب الدعوة في بلاد إسلامية كثيرة ، أتعجب من بعض هذه الأسئلة ، وما فيها من التكلُّف والتعمق ، والتنطع الشديد ، وتجد أن معظم هذه المسائل من الأغلوطات التي نهى الله تعالى ورسوله ﷺ عنها ! فكيف لم يقع السلف الصالح على هذه العلوم والأسئلة ، فلم يجيبوا عنها ، ولا فهموها ، ولم تتهيأ لهم ، حتى انبرى لها هؤلاء فكشفوها ، وسألوا عنها ؟! إن هذا لشئ عجاب ! .

وقد تجد هذا الإنسان جاهلاً ببعض الأصول الكبار ، وغير متعمّق في علوم كان يجب أن يتعمّق فيها ، وأن يفهمها ، ولهذا يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله في كتابه « تلبيس إبليس » : « لو اتسع العمر لم أمنع من الإيغال في العلم ، غير

أن العمر قصير ، والعلم كثير ،فالتشاغل بغير ما صح يمنع من التشاغل بما هو أهم منه ، ولما تشاغل يحيى بن معين ، فاته من الفقه الشيء الكثير ، ومن أقبح الأشياء أن تجرى حادثة يسأل عنها الشيخ ، أمضى ستين سنة فى طلب الحديث فلا يعرف عنها شيئاً » .

وأقوال استدراكاً على ابن الجوزى : إن ما تشاغل به يحيى بن معين هو مما ينفع الناس ، ولكن غيره كثير تشاغل بما لا ينفع من الغرائب والعجائب والطرائف ، التى لا يحتاج إليها ، والتى تموت بموته ، ولهذا قيل فى عيوب بعضهم أنهم : «أبحث الناس عن صغير ، وأتركهم لكبير !! » . وقيل أيضاً فى عيوب بعضهم : « أعلم الناس بما لم يكن وأجهلهم بما كان ! » .

ومما حكى لنا عن الشيخ محمد الأمين الشنقيطى رحمه الله أنه كثيراً ما تمثل بقول القائل :

وقدم الأهم إن العلم جم ... فالعمر ضيف زار أو طيف ألم

إن أمم الكفر من اليهود والنصارى فى بلاد الغرب اليوم

تشاغلوا بالعلوم الدنيوية ، فسخَّر الله لهم من هذا الكون المادة فاستفادوا منها ، وانتفعوا أيما انتفاع ، فغاصوا فى أعماق البحار ، وصعدوا إلى أجواء الفضاء ، وتقدموا فى ألوان العلوم ، واستطاعوا أن يستفيدوا من ذلك فى التسهيلات الحضارية التى انتفعوا بها هم كثيراً ، وانتفع بها غيرهم ، واستطاعوا أن يحفظوا مكانتهم ، ويحققوا لأديانهم وعقائدهم وأفكارهم انتصارات عسكرية بسبب ما ابتكروه واخترعوه ، وذلك لأنهم تركوا التشاغل بغيره .

وقد أصابوا من جانب ، وأخطؤوا من جانب ، أصابوا من جانب الاشتغال بهذه العلوم الدنيوية المفيدة ، وكان يجب على المسلمين أن يشتغلوا بها ، ويحققوا أكثر مما حقق هؤلاء ، ولكنهم أخطوا من جانب آخر ، وهو أنهم تشاغلوا عن العلوم الأخروية الموصلة إلى رضوان الله تعالى ، فصدق عليهم قول الله عز وجل : ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** (٧) ﴾ [الروم : ٧] ، فهم لا نصيب لهم فى الدنيا والآخرة ، ولا خلاق ، إنما نصيبهم فى هذه الدنيا . أما

الأمم المسلمة فأخشى أن تكون في بعض مظاهرها خسرت هذا وذاك ، فهي لم تفلح في إعزاز دينها ، ولم تفلح في تطوير دنياها ، مع الأسف الشديد .

إذن ؛ العلم قرينه العمل ، وهو ثمرته ، والعلم والعمل اسمهما « الفقه » ، وفي الصحيحين من حديث معاوية : **«من يُرد الله به خيراً يفقههُ في الدين »** [(١)] وأنت في صلاتك تقول : ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** (٦) ﴾ [الفاتحة : ٦] ، وما الصراط المستقيم إلا العلم والعمل بالهدى ودين الحق .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** (٨٠) ﴾ [آل عمران : ٨٠] ، نزلت هذه الآية في أهل نجران لما قالوا : « يا محمد! هل تريدُنا أن نعبدَك ؟ » فالنصارى عبدوا عيسى عليه السلام ، وقيل نزلت فيمن قال : يا رسول الله ! ألا نسجدُ لك ؟ » كما

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩ ، ٢٨٨٤ ، ٥٢١٣) ، ومسلم (١٧١٩ ، ١٧٢١ ، ٣٥٤٩) .

يسجدُ النصارى لزعمائهم ، فنهى الرسول ﷺ عن ذلك وقال : « **لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحدٍ لأمرتُ المرأة أن تسجدَ لزوجها** » [١] .

فاليهود والنصارى ضلوا بترك العلم كما فعل النصارى ، أو بترك العمل كما فعل اليهود ، فأنت تقول : ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ** ﴾ يعنى : صراط العلم والعمل ﴿ **غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ** ﴾ وهم اليهود الذى تركوا العمل ، ﴿ **وَلا الضَّالِّينَ** ﴾ أى النصارى الذين تركوا العلم .

---

(١) أخرجه الترمذى (١٠٧٩) ، وابن ماجة (١٨٤٣ ، ١٨٤٣) ، وأحمد (١٢١٥٣ ، ١٨٥٩١ ، ٢٠٩٨٣ ، ٢٣٣٣) ، والدارمى (١٤٢٨) .

الصفة العاشرة
[التعليم]

قال تعالى : ﴿ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ ﴾ [آل عمران : ٧٩] ، والتعليم مهمة الأنبياء ، يُعلِّمون الناس الكتاب ، والله وملائكته يصلون على معلم الناس الخير .

وينبغى أن تعلم أن العلم كالمال لا يكنز ، ولابد أن تؤدى زكاته ، ويختلف العلم عن المال فى أن العلم ليس له نصاب ، حتى لو لم يكن عندك من العلم إلا آية واحدة ، أو حديث واحد ، وجب أن تبلغها ، يقول النبى ﷺ : « **بلّغوا عنى ولو آية** » (١) ، وفى الحديث الآخر : « **نضّر الله امرءاً سمعَ منّا حديثاً فبلّغَه** » (٢) .

(١) أخرجه البخارى (٣٢٠٢) .
(٢) أخرجه الترمذى (٢٥٨٠) ، وأبو داود (٣١٧٥) ، وابن ماجه (٢٢٨ ، ٢٣٢) ، وأحمد (٣٩٤٢ ، ١٦١٥٣ ، ٢٠٦٠٨) .

• تعليم الربانيين :

وللعلماء الربانيين سمات واضحة فى تعليمهم منها :

أولاً : أن يكونوا ربانيين حقاً ، أى : يربون الناس بالعلم ، ويراعون فى ذلك التدرج فى التعليم ؛ فلا ينقلون الإنسان فى طفرات متسارعة تجعله غير منضبط فى عمله ، وفى تعليمه .

ثانياً : أن يراعوا التربية ، فليس العلم مجرد حشو الذهن بالمعلومات ! فقد تجد إنساناً كالبحر فى معلوماته ، لكن شخصيته لم تُصَغ صياغة سليمة فيها الانضباط والتوازن ، والأدب ، والتعقل ، والاجتهاد ، فيكون علمه حجة عليه ؛ لأنه اغتر بهذا العلم واغتر الناس به أيضاً ؛ لأنه إذا تكلم فى المسائل أجاد ، وأفاد ، لكنهم ينسون أن هذا العالم لم يصحبه نور ، وبصيرة ، وتربية ، ومراعاة للأحوال .

ثالثاً : بذل العلم للعامة بسهولة العبارة ، ووضوحها ؛ لأن المقصود ليس التقعر بالقول ، وإظهار القدرة على الناس ؛ بل المقصود تبليغ السامع ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا

مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم : ٤] ، أى المقصود أن يصل العلم إليهم ، وليس شيئاً آخر وراء ذلك .

يقول الإمام الشاطبى رحمه الله : « وبهذا كان السلف الصالح يعملون فى تبليغ الشريعة للمؤالف والمخالف ، ومن نظر فى استدلالهم على إثبات الأحكام التكليفية علم أنهم قصدوا أيسر الطرق ، وأقربها إلى عقول المخاطَبين والطالبين ، من غير ترتيب متكلّف ، ولا نظم مؤلّف ، بل كانوا يرمون بالكلام على عواهنه ، ولا يبالون كيف وقع الكلام فى ترتيبه إذا كان سهل المأخذ قريب الملتمس » .

فتراعى إذن التبسيط ، والتسهيل ، والتيسير ، وليس من الضرورى أن ترتب ، وتأتى بنقاط ، ومسائل ، وقيل وقال ، المهم أن يصل الحق إلى الناس ، وبأقصر طرق ، ولا يمنع أن الإنسان يخص أقواماً بمزيد من العناية ، والترتيب ، والتبويب ؛ لأنهم طلبة علم مختصين ، لهم عمق ودقة فى البحث ، أو ما أشبه ذلك ، ولهذا اختص الخطيب بضرورة تسهيل العلم للناس ، ومثله من يخاطب الجماهير .

قال ابن قتيبة رحمه الله : « ينبغي أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، ولا يدقق في المعاني كل التدقيق ، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ، ويكون في الكلام إجمال وعموم يتناسب مع عقول المستمعين » .

هذه بعض صفات العلماء الربانيين الهداة المهديين ، جعلنا الله منهم ، وسلك بنا سبيلهم ، إنه جواد كريم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

سلمان بن فهد العودة

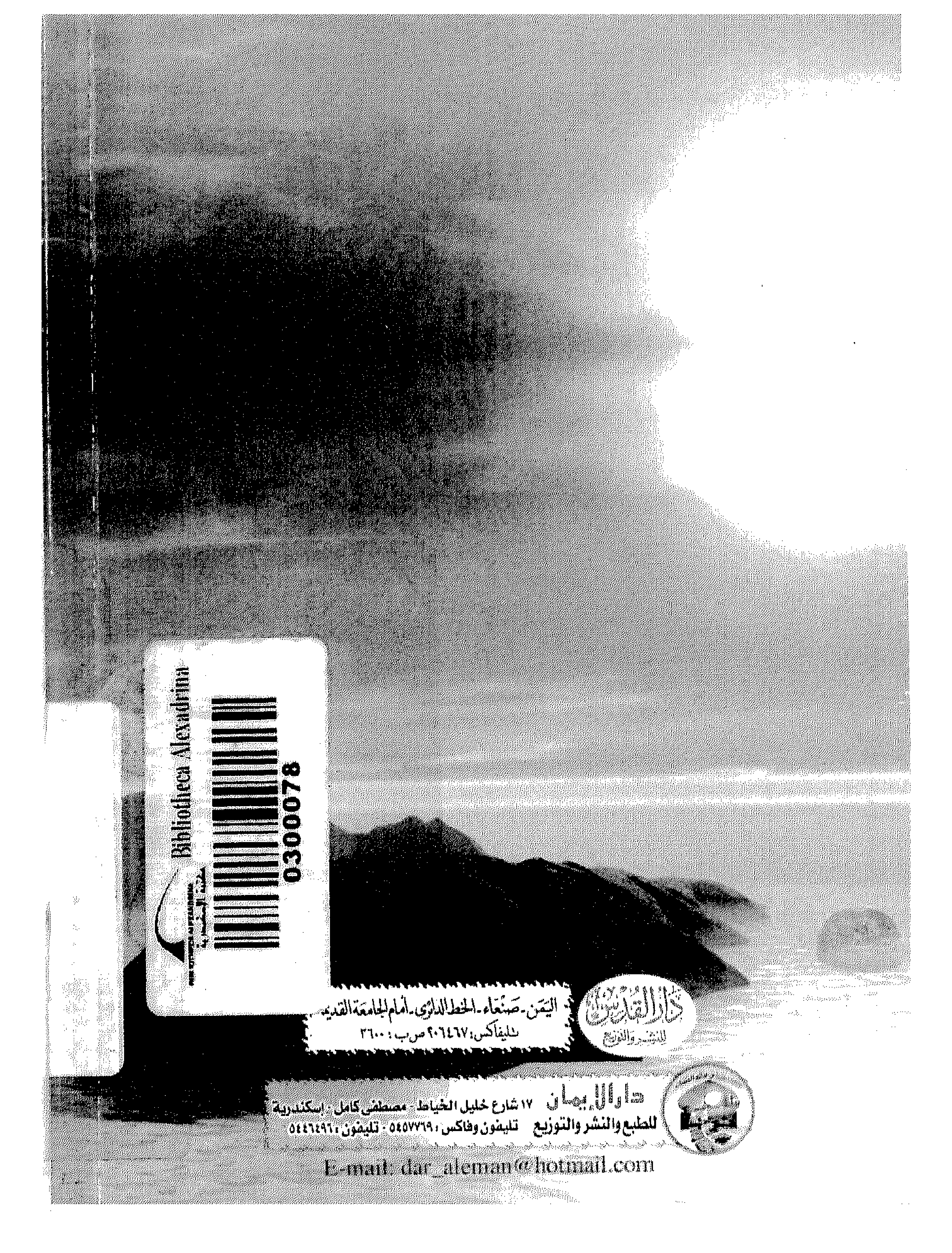
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

الفهرس

من مطبوعات دار الإيمان

لفضيلة الشيخ/ سلمان العودة

- رسالة إلى الأب .
- دعاة في البيوت .
- الصحوة في نظر الغربيين .
- رسالة إلى الشباب المسلم .
- نهاية التاريخ .
- ولكن كونوا ربانيين .
- مزالق في طريق الطلب .
- نسيم الحجاز في سيرة الإمام عبد العزيز بن باز .
- المزاح .
- إمام أهل السنة .


Bibliotheca Alexandrina
03000078
دار القدس
للنشر والتوزيع
اليمن - صنعاء - الخط الدائري - أمام الجامعة القديم
تليفاكس: ٤٠٦٤٦٧ ص.ب: ٣٦٠٠
دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - تليفون: ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail: dar_aleman@hotmail.com